رأي القدس

كارثة العبارة المصرية المنكوبة

■ تعيش مصر حالة من الحداد الممزوجة بالغضب بعد غرق اكثر من الف شخص في العبارة المنكوبة، في حادث يعتبر الاسوأ من نوعه في تاريخ الخطوط الملاحية المصرية. شهود العيان اكدوا وجود عملية تقصير فاضحة من قبل الحكومة المصرية والمسؤولين فيها، سواء في عملية الرقابة على السفن او اجراءات السلامة المتبعة وعمليات الانقاذ.

فبعض الناجين قالوا انهم بقوا في الماء اكثر من عشرين ساعة دون ان تصلهم اي وسائل انقاذ، بينما اعترف وزير النقل انه لم يبلغ بالحادث الا بعد تسع ساعات.

انه الاهمال وانعدام المسؤولية لدى الحكومة واجهزتها، فالسفينة قديمة متهالكة غير مؤهلة لنقل الركاب، واجراءات السلامة المتبعة فيها شبه معدومة، ونداءات الاستغاثة التي اصدرتها لم تجد احدا يستمع اليها في غرفة التقاط الرسائل في الميناء.

من حق المصريين ان يغضبوا لانه لا يمر شهر تقريبا دون وقوع كارثة تتسبب بعشرات الضحايا واحيانا مئات الابرياء، مثل الحرائق التي تندلع في القطارات والمسارح، او سقوط الطائرات نتيجة خلل فني او بشري.

الشعب المصري الصابر الذي يتغرب ابناؤه من اجل لقمة العيش في الدول العربية ويساهم في دعم الاقتصاد المصري بتحويلاته المالية يستحق معاملة افضل، وحكومة اكثر كفاءة ومسؤولية.

فالترخيص لسفن انتهى عمرها الافتراضي، وخرجت من الخدمة في دول اخرى، وانتهكت القوانين المرعية في مصر نفسها في هذا الخصوص لا يمكن ان يصدر الا عن جهة حكومية قبضت ثمنا مقابل ذلك.

مطالبة الرئيس المصري حسني مبارك بتشكيل لجنة تحقيق لمعرفة الجهة المسؤولة عن هذه الكارثة خطوة جيدة، ولكن يظل السؤال هو عن ما اذا كانت هذه التحقيقات ستكون نزيهة ام لا، وما يمكن ان يترتب عليها من محاسبة للمسؤولين؟

في الماضي جرى تشكيل لجان للتحقيق في كوارث مماثلة، وتبين ان تشكيل هذه اللجان كان من اجل امتصاص النقمة العامة فقط. وبعد ان تتحقق هذه المهمة تتبخر اللجان وتتبخر معها نتائج تحقيقاتها ويستمر الفساد والكوارث من بعده.

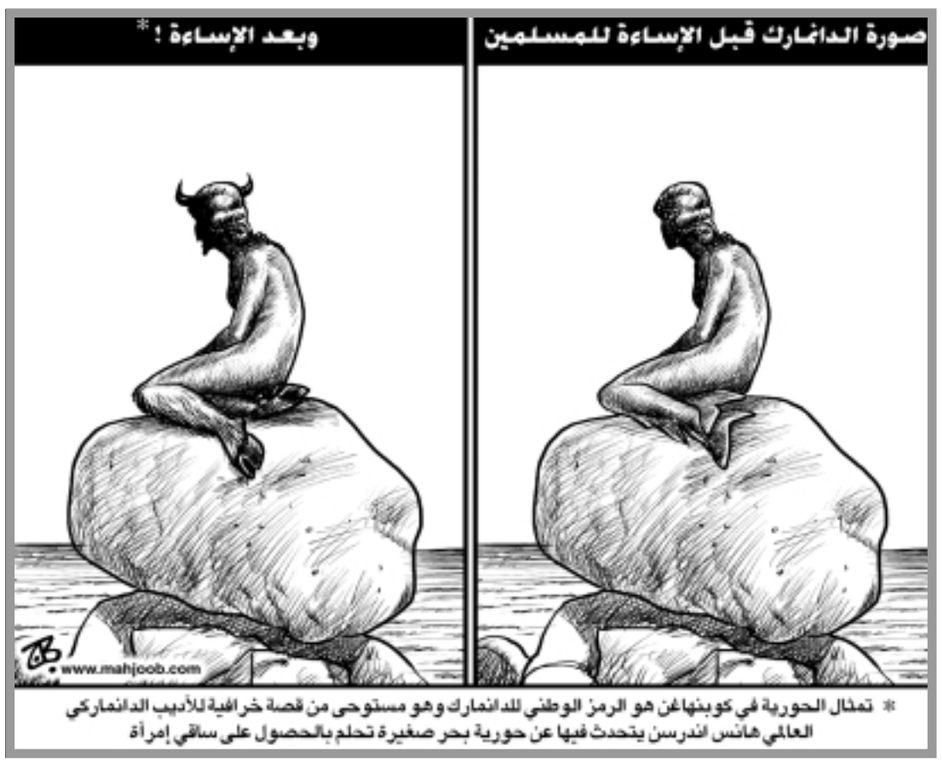

* تمثال الحورية في كوبنهاغن هو الرمز الوطني للدانمارك وهو مستوحى من قصة خرافية للأديب الدانماركي العالمي هانس اندرسن يتحدث فيها عن حورية بحر صغيرة تحلم بالحصول على ساقي إمرأة

أمريكا تعاقب فلسطين لارتكابها «جريمة» الديمقراطية

مطاع صفدي *

■ بوش في خطابه الأخير الموجه إلى شعبه عن حالة البلاد يقول بالفم الملآن: إن الإنسحاب من العراق سيعرض حلفاءه وأصدقاءه لمقتل والإعتقال. هكذا إذن أمسى سبب الإحتلال هو الخوف على الحلفاء والعملاء. كأنما جيش أكبر دولة في العالم لم تعد له من مهمة سوى حماية الأتباع المنزرعين فيما وراء البحار. ذلك اعتراف غير مباشر بأن ما يسمى بالعملية السياسية القائمة اليوم في بغداد برعاية الإحتلال، لا جذور لها في المجتمع الذي من المفترض أن تقوده وتتحكم في شؤونه وترسم له مصيره. إنها عملية مرتهنة مقدماً ببقاء الغزو الأجنبي، الذي بدوره يطور سلطته إلى شكل من الاستعمار التقليدي، بحيث تغدو الدولة العراقية محكومة بسلطة ازدواجية، فمن جهة يظهر لها وجه حكومة أهلية يقتصر نشاطها على تصريف الشؤون الإدارية للوزارات، وفي الوقت عينه تمنع الاحتكاك اليومي بين المحتل والشعب، وتضفي ثمة مشروعية زائفة على الوجه الآخر الذي يختفي وراءها، ويشكل سلطة الحكم الإستعماري الفعلية. تلك هي الصيغة التي تنوي إدارة بوش تحقيقها منذ البداية، كغاية مرحلية على طريق الاستراتيجية الأشمل لمشروع الإمبراطورية الهادفة إلى السيطرة على إنسانية القرن الواحد والعشرين، وجعله قرناً أمريكياً خالصاً، ومن المدخل العربي الإسلامي دائماً!

لكن استقرار غزو العراق في شكل مستحدث من الإستعمار التقليدي، لا يمكن أن يطمئن إلى مستقبله إلا مع تحول العراق إلى مركز انطلاق، ومعبر دائم لإحكام السيطرة السياسية والإقتصادية على كل الوطن العربي، تحقيقاً للإعلان عن قيام (الشرق الأوسط الكبير). ليس هناك من مشروع إمبراطوري إلا بشرق أوسط أمريكي. وهو في الحقيقة شرق أوسط نفطي واستراتيجي. ومن يسيطر عليه يكسب معركة التملك من شريان التفوق الإقتصادي على بقية العالم. وقد اتهم بوش، وفي خطابه الأخير، الشعب الأمريكي بأنه مدمن على النفط. لكنه وعده أن يحرره من الإدمان السياسوي الآخر المضمر في التعلق بالشرق الأوسط، عندما سيتمكن علماء أمريكا من اكتشاف الطاقة البديلة. محدداً تاريخاً للخلاص من هذا الضرب من الإدمان في عام 2025. تلك هي ثقة غيبية لا برهان عليها إلا هذا التأكيد على أولوية المشروع الشرق أوسطي بالنسبة لعقيدة بوش، من ناحية، ومن ناحية أخرى يبشر بوش شعبه والعرب والعالم أن غزو العراق باقٍ عشرين عاماً أيضاً، أو حتى ذلك الحين الذي ستقع فيه معجزة الكشف عن الطاقة البديلة!

ما ينبغي أن يفهمه العربي مجدداً، ومع هذا الخطاب الأخير الغاص برموز المعجزات والنبوءات السحرية، هو أن أمريكا البوشية اليوم، وربما إلى ما بعد البوشية، عازمة على ممارسة فعلية لسياسة حرب باردة جديدة، ثنائية القطبية، تشكل هي قطبها الأول، ويشكل النفط قطبها الثاني. لكن وطن النفط مأهول كذلك بالإنسان، بشعوب العرب والإسلام وحضارتهم المستديمة الإيقاع بالقوة والضعف، بالتفوق والتخلف، لكنها المولّدة في مختلف أحوالها، لشتى صنوف الممانعة والتطابق مع هويتها بعد كل مفارقة أو ابتعاد عنها. فالحرب الباردة التي لا تعفّ عن إثارة حروب حارة هنا وهناك، أمست قائمة عملياً تحت تلك التسمية المضللة: الحرب على الإرهاب. فلقد تم افتراض أن الإرهاب يعم العالم كله. وبذلك يصير هذا (العالم كله) في مرتبة العدو اللانهائي لأمريكا الإمبراطورية، مثلما تحتم هي كذلك على نفسها صياغة كيانها كدولة الحرب الدائمة. فاختراع العدو صار حرفة التسويغ التقليدي لعسكرة السياسة وتوجيهها ضد كل دولة أو شعب يقف حجر عثرة في طريق استراتيجية الهيمنة غير المحدودة المكان أو الزمان. لنتذكر المظاهرات المليونية وأشباهها التي شاركت فيها معظم مجتمعات المعمورة ضد غزو العراق. ثمة نوع من رد الفعل الغريزي والإحساس العفوي لدى هذه المعارضة الكونية بأن الغزو هو عدوان على أخلاق الإنسانية وقيمها الطبيعية. هذا يثبت على الأقل نجاح الأمركة بأن تجعل من نفسها عدوة العالم.

ومع ذلك فالغزو وقع واستمر واستشرت تداعياته في أوسع محيط حوله. وكان على العراق الجريح الذي لا يزال يدمره الإحتلال، ألا يستسلم لمصير الضحية المنتهية. اخترع مقاومته سريعاً التي بدورها أحالت تواجد الغزاة إلى ما يشبه الإقامة في الجحيم. هكذا دخل العراق والمنطقة معه إلى حال من التسابق بين أن يستوطنه الاحتلال وتنفشى أوبئته وسمومه حوله، وبين أن يكتشف كلّ قطر مهدّد نوع مقاومته المطلوبة والمنتظرة. بالمقابل أصبحت السيطرة الأمريكية على الشرق الأوسط ترادف الديمقراطية في الخطاب البوشي، وكأنها حكم مبرم يراد منه معاقبة الشعوب أكثر من كونه تهديداً للأنظمة الحاكمة الفاسدة؛ صار على المقاوَمات العربية القديمة والآتية أن تبرئ الديمقراطية من وصمة الاشتباه بكونها الأداة الجديدة للهيمنة، والقناع الدعاوي لوجه الإستعمار الإمبراطوري، كبديل عن ادعاء «رسالة الإنسان الأبيض» شعار الاستعمار الأوروبي منذ القرن التاسع عشر.

حين تأتي ديمقراطية شعبية سليمة بفئة المواطنين المختارين من قبل جماهيرهم، ينقلب ضدها ودفعة واحدة هذا (الغرب) الذي يسمي نفسه العالم الحر والأمين على تراث الحرية والديمقراطية. إن غضبة أمريكا وأوروبا (الرسمية) دفعة واحدة على المفاجأة الفلسطينية، وطريقتها الشعبية المباشرة في ممارسة الديمقراطية، تكشف أقنعة النفاق الغربي كلها ليس تجاه الرأي العام العربي فقط الذي لا يملّ بوش وأبواقه المحلية من محاولة خداعه عبثاً باصطلاحات الدمقرطة وأحلامها الكاذبة، بل تحت بصر وسمع المراقبين الدوليين من أهل الثقافة والسياسة والريادة الفكرية. إذ يقدم الحدث التشريعي الفلسطيني الإستثنائي، ومحاولة إحباطه أمريكياً إسرائيلياً، يقدم مؤونة برهانية حيّة إلى حلقات النقاش والجدل العالمي، المستعر حول الليبرالية الجديدة، كأحدث إيديولوجيا طامحة إلى احتكار قيادة المرحلة الراهنة من المتغيرات الإجتماعية والسياسية، إنطلاقاً من العالم الثالث، وخاصةً من قارة العرب والإسلام.

فالديمقراطية، المسموح بها أمريكياً في هذه القارة، هي العملية التشريعية ظاهرياً، التي تأتي إلى الحكم فقط بحلفاء، بل بأعوان واشنطن وأجهزتها الإستخبارية تحديداً، ومعهم تلك الفئات المبعثرة من أشباه المثقفين الرافعين لأعلام الليبرالية، والمرددين كالببغاوات لألفاظ الحرية والعدالة، في الوقت الذي تُنتزع من مجتمعاتهم البائسة أبسط ما كانت اكتسبته، بنضالاتها وتضحياتها، من شروط استقلالها السياسي والإقتصادي، الأولية، تحت وطأة الانفتاح، بل الاستسلام للعولمة المتوحشة.

هكذا لم يعد يتورع الغرب بجناحيه الأمريكي والأوروبي عن إخضاع الفلسطينيين، الشعب الضحية المستديمة، لأوقح عملية ابتزاز سياسي بل حياتي، تطالبهم، وباسم القانون ومجتمعه الدولي، بالتخلي عن آخر حقوقهم في الدفاع عن مجرد وجودهم في أصغر الشتات من وطنهم الأصلي، وذلك لقاء حفنة من سلطة هزيلة قد تُمنح لبعض رموز المقاومة المتمسكة ببقايا تلك الحقوق والشتات. وإلا فإن الغرب سيلجأ إلى قطع (عطاياه) المالية، ويوقف دعمه لمشاريع إنمائية. فالحظر أو التحريم السياسي إذن لا يقع فقط على حماس وحدها، بل على أهداف الشعب الفلسطيني الأصلية نفسها التي، ينبغي القول إنّ حماس لم تربح الإنتخابات إلاّ على أساس تمسكها بها، بينما تخلى أو تنازل عنها الآخرون، وتحديداً من بعض شيوخ (فتح) وعُمدائها التاريخيين.

ما يريد سادة الإبتزاز والترهيب أن يذيعوه على الملأ، هو أنهم هم أصحاب الأمر والنهي، هم الناخبون الحقيقيون وليست ديمقراطية الشعب. هم الذين يعيّنون أو يُقيلون حكام فلسطين. والذريعة الوحيدة التي يتشبثون بها هي الخوف من وصول (الإسلاميين) إلى مراكز القرار السياسي. فالإسلام السياسي هو المتهم إذن. في حين أن نجاح الحركات الإسلامية بصورة عامة، وليست حماس وحدها، في اكتساب جماهير مجتمعها المضطهدة، لم يتحقق إلا على أساس تبنيها أيديولوجياً واجتماعياً لذات الأهداف التحررية التي حملتها من قبلها ولا تزال، مختلف التيارات القومية وبعض اليسارية. فليس الخطاب الإسلامي السياسي سوى الطبعة الأخيرة للتعبير عن تلك الأهداف التي تُعادل فطرة الإنسان العربي والإسلامي طيلة تاريخه.

بالمقابل لا تجد أمريكا بوش ثمة إيديولوجيا تعارض بها ثقافة الممانعة والمقاومة ضد طغيانها الهمجي، سوى ديمقراطية هذه الليبرالية الجديدة التي هي أحدث إخراج دعاوي عولمي لنفاق الرأسمالية، في لحظة الإنفلات حتى من خطابها التقليدي في ازدواجية المعايير، واعتماد منطق القوة القاهرة وحدها، الحارسة والداعمة لعربدة أشكال الطغيان الجنوني، وشراكته الإجرامية مع أوسع شبكات اللصوصية المعممة، والمعروفة في تاريخ الفساد البشري.

* مفكر عربي مقيم في باريس

خلاص سورية ما زال ممكنا

انس العبدة

■ مع تزايد الهزات السياسية الارتدادية التي بدأت تفعل ما تفعل في جدران وأسس النظام السوري التي تفتقد كل صمامات أمان مقاومة الزلازل، يحق للمواطن السوري الذي أصبح يعي تماما خطورة المأزق الذي يعيشه أن يشعر بالقلق البالغ لكونه في نهاية المطاف سيدفع الشطر الأكبر من الثمن إن لم يكن كله للتدافع المحموم لتلك القوى المتنوعة الساعية لحماية مكتسباتها المتضخّمة منذ أكثر من ثلاثة عقود على حساب الوطن والمواطن. ولكي نفهم حقا وجهة نظر المواطن السوري لا بد من معرفة المراحل التي مر بها خلال العقود الأربعة الماضية التي شكلت معالم العقلية الجمعية لهذا الشعب الصابر: الماضي والحاضر والمستقبل.

في المرحلة الماضية (منذ وصول البعث للسلطة) سلّم المواطن السوري زمام القيادة لنخبة ثورية وقومية غير منتخبة تحت شعارات تحرير الأرض السليبة واللحاق بركب الثورة الصناعية وتحرير الإنسان من إرث الماضي. لكن تلك النخبة فشلت فشلا ذريعاً في تحقيق أي من هذه الأهداف، وصاحب هذا الفشل إفلات غير معقول من كل مستلزمات الشفافية والمساءلة والمحاسبة، ساعدت بلا شك على تعبئة وشحن المواطنين لدرجة الثورة المسلحة، ولذا لا بد من اعتبار الثورة على النظام في السبعينات وبداية الثمانينات انعطافة طبيعية للفشل وغياب مبدأي المحاسبة والشفافية. لم تتمكن هذه الثورة من تحقيق أهدافها، لكنها غرست في تاريخ الشعب السوري جرحاً غائرا لم يندمل وأثراً نفسياً لم يمنح رغم مرور ربع قرن من الزمن. والغريب أن القيادة السورية آنذاك وبدلا من أن تنظر لتلك الثورة على أنها مؤشر واضح على ضرورة التغيير وتحسين الأداء العام وإفساح المجال أمام الإصلاح الحقيقي أو حتى النسبي، أمعنت في استبدادها. وبهذا دخل الشعب السوري نفقاً مظلماً من الاستبداد الأسطوري الذي كتب عنه ووصفه بدقة أرسطو وسقراط على أنه يولد خنوعا عند المحكومين يجعلهم يقبلون بواقعهم، ويولد عند الحكام نهما للاستمرار بما هم عليه وبذلك تموت مع الزمن الرغبة البشرية بالانعتاق.

في المرحلة الحاضرة شهد المواطن عدة انعطافات خطيرة وهامة: شيوع الحرية والديمقراطية والاحتلال الأمريكي والانسحاب السوري من لبنان. شهد المواطن حاضرا انعطافة الحرية وانتشار الديموقراطيات وتأصيل حقوق الإنسان وسقوط الكتلة الشرقية وما صاحبها من ثورة في المعلومات أطلعت المواطن السوري على ما يجري حوله، فأصبح يدرك مدى فشل نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبدأ يتطلع ويُمنّي النفس بمستقبل واعد. كذلك شهد أيضا الاحتلال الأمريكي للعراق وما نتج عنه من انتشار أمريكي على الحدود المتاخمة لسورية، فاستشعر بالخطر وأحس بالوجع الوجداني لرؤيته فشل شعارات القومية العربية التي رباه النظام عليها والتي عجزت عن حماية العراق من نفسه والغزاة. ففي العراق يحس المواطن بالألم ويتخوف على بلاده من عدوى حريته، فيقع بين نارين. ثم جاء الانسحاب السوري من لبنان بعد حادثة اغتيال الحريري ورفاقه وما صاحبه من خسارة لبنان كرديف وحليف للنظام السوري، وخسارة المحيط العربي، ومواجهة المجتمع الدولي الذي شهد حالة فريدة من التنسيق والاتفاق بين أطرافه المتنافسة وخاصة فرنسا وامريكا ضد سورية.

هذا الرصيد الهائل من الحوادث والمنعطفات أغنى ذاكرة المواطن السوري وأبلغه مرحلة من النضج أملت عليه نوعا من الممانعة الطبيعية لكل ما جرب وتبين فشله في الماضي، فكان طبيعيا رفض المعارضة والشعب لخيار التغير بقوة السلاح أو الثورة المسلحة الداخلية. كما أكسبه هذا الرصيد حساسية مفرطة تجاه الطريق الثاني المتمثل بالتعامل مع الاحتلال الأجنبي ودعوته لغزو أرضه، خاصة وأن الجميع يعيشون شهوداً أحياء على تاريخ سيكتب لأجيال قادمة عن احتلال قوة عظمى لأرض عربية، سماته الأساسية الاستقطاب الطائفي والحرب شبه الأهلية والتفكك المحتمل لوحدة التراب العراقي.

إن تاريخ أربعة عقود مضت يضع المواطن العربي عامة والسوري خاصة أمام خيار شق طريق ثالث بعيداً عن العنف الداخلي والاحتلال الخارجي يقوم على أساس أن نبادر بقلع شوكنا بأيدينا كما يقول المثل السوري المعروف. ولكن هل يا ترى خيار الطريق الثالث المتمثل بالعمل والمبادرات الشعبية والعصيان المدني خياراً واقعيا، خاصة مع الأنظمة الأمنية العربية التي تأسست على منع تداول السلطة؟ ومن سيضمن عدم تجيير تلك المبادرات الشعبية لصالح استبداد متجدد بلباس خادع؟ وهل المجتمع السوري جاهز لمثل هذا الخيار؟

لابد من الاعتراف بأن حالة الاستبداد التي عاشها المجتمع السوري في عقوده الأربعة الماضية أنتجت نوعاً من الاستسلام الروحي للحاكم وانعدام الثقة بين المحكومين وتبلد العقل لدى الطرفين إلى درجة اللامبالاة وعدم إدراك حجم الاستبداد مما أنتج رغبة بعدم الانعتاق من تلك السلسلة التي تربط الجميع، وأصبحت بالتالي مهمة الحاكم مقتصرة على منع الآخرين من الوصول إلى السلطة، هنا يتجمد الحراك السياسي والاجتماعي بانتظار الانهيار.

وتخشى قطاعات كبيرة من المجتمع السوري من حالة الفوضى المحتملة وما يمكن أن تؤدي إليه في ظل الاحتقان الاجتماعي المتزايد الذي يأخذ أشكالاً متعددة ومختلفة ولعل أخطرها: الاحتقان الطائفي نتيجة الممارسات الاستبدادية واللامسؤولة للنظام السوري. ورغم محاولات النخبة المثقفة داخل وخارج سورية التقليل من خطر الصدام الداخلي في حالة الفوضى التي يمكن أن تعقب انهياراً متوقعاً للنظام إلا أن الإشارات الملتقطة من داخل الشارع السوري تزيد من مسؤولية قادة المجتمع المدني في لعب دور في تحصين الشعب السوري من الوقوع في مصيدة الاقتتال الداخلي.

قد يبدو خيار الطريق الثالث صعباً وإلى حد ما مثاليا بالنظر إلى الواقع السوري المعاصر، ولكنه الطريق الوحيد الذي سيضمن لجميع مكونات الشعب السوري الخروج من المأزق الحالي المتفاقم بأقل الخسائر الممكنة. كما أنه يتطلب درجة عالية من التضحية والوعي والإحساس بالمسؤولية. إنّ شق هذا الطريق يبدأ بالتحريض على الانعتاق من حالة الاستبداد القائمة وبناء جسور الأمل والثقة لدى المواطنين والتأكيد على أنّ مبدأي الحرية والعدالة هما ركنان أساسيان لأي تقدم وتنمية حقيقية. لقد أثبت التاريخ الانساني أن الشعوب قادرة على إفراز قيادات تثق وتؤمن بها رغم سلطان الاستبداد لتسعى بها إلى الخلاص، ولعل النتائج التي توصل إليها معدو التقرير الوطني للتنمية البشرية في سورية للعام الفائت تؤكد على هذا. إنّ بناء معارضة شعبية ذات برنامج واضح ومواقف سياسية وطنية مبدئية سيكون لها أثر كبير في تكريس إيمان المواطن بضرورة سلوك هذا الطريق الذي سيحمي سورية وأهلها من خطورة المرحلة الراهنة. ولذا لا بد من رفع سوية الوعي السياسي لدى المواطن السوري من خلال التواصل الإعلامي والشعبي لتأكيد مبدأ التعددية والانفتاح السياسي ومقاطعة طبقات السياسيين والمثقفين التي تروج للاستبداد الداخلي أو لمشروع الاحتلال الخارجي.

إن المحاربة على جبهتين في آن معا تبدو مهمة أشبه بالمستحيلة إذا ابتعد عنها العنصر الشعبي. وإذا كنّا على قناعة كاملة بأنّ الأنظمة طارئة والشعوب دائمة، فمن يا تُرى يشك في هذا الرهان؟

الاسلام اليوم: من أهل الفقه الى أهل الكهف

د. مضاوي الرشيد *

■ جاءت إطلالة اسامة بن لادن الأخيرة لتذكر العالم انه ما زال على قيد الحياة. كان خطابه موجها للمسلمين والولايات المتحدة معاً، تزامن هذا الخطاب مع سلسلة من العمليات العسكرية في العراق والتي برهنت على تطور ملحوظ ونجاح كبير في قدرة المسلحين على انزال اضرار مرئية منها اصابة الموحيات والطائرات الامريكية مباشرة دون اللجوء الى التفجيرات المعروفة والتي شهدتها الساحة العراقية. ربما تعتبر هذه التطورات خلفية مهمة وراء عرضه للهدنة الموجهة الى الولايات المتحدة والذي استبقه باعلانه عن عمليات جديدة في قلب امريكا. ومن المؤكد ان لامريكا وبن لادن حسابات قد يصفيها الطرفان بطريقتهما الخاصة. كذلك ربما لبن لادن حسابات خاصة مع الأنظمة العربية سيتم التعاطي معها كل حسب قدرته وامكانياته. ما يهمنا هنا هو ظاهرة بن لادن والتي هي في طور التغير ولا نستطيع ان نجزم انها وصلت الى مرحلة اخيرة في طريقة نموها. ما يلفت الانتباه ليس الجبهات المفتوحة هنا وهناك والعراق احد هذه الجبهات ولكن معنى ظاهرة بن لادن هذه للاسلام نفسه. فلا نستطيع ان نعزلها عن الاسلام مهما حاولنا ان نؤصلها ونرجعها الى اسباب سياسية اقتصادية او اجتماعية. انقسم المحللون في تعريف هذه الظاهرة المسماة بن لادن. طيف اول ارجعها الى جذورها التاريخية المعروفة اسلاميا. فكتب برنارد لويس مثلا وتصريحات المسؤولين السعوديين تؤصل للظاهرة وكأنها الامتداد الطبيعي لما يسميه الأول «التطرف الاسلامي» وما يسميه الثاني بالخوارج. هذه المغالطات لا تصمد امام التحليل الواقعي للظاهرة هذه وكيفية كونها نتاجا حديثا لمعضلات حديثة. الطيف الثاني يبرئ الاسلام من ظاهرة بن لادن ويحاول ان يعزي ظهورها واستمراريتها الى حالة انتهاك ديار المسلمين سياسيا واحتلال هذه الديار واستغلال مواردها يغلب على هذا الطيف من التحليلات الرغبة في ابعاد هذه الظاهرة عن حيز الاسلام وتجريم المسؤول الأول عن ظهورها كالغرب مثلا او الحكومات المحلية التي تنتهك حرمة البلاد ومواطنيها. غلبة الطابع «الذرائعي» واتجاه «التبرئة» هذا يصور البنلادنية وكأنها استمرار لمرحلة المواجهة بين الامبريالية والرأسمالية العالمية وبين الشعوب المضطهدة الخاضعة لهذه القوة العالمية. يتصدر هذه التفسيرات في الغرب العلماء الذين ما زالت افكارهم اليسارية وحتى الشيوعية المناهضة للهيمنة الامريكية الحالية معششة في مخيلتهم. فمرة يتصورون بن لادن وكأنه احد اعمدة الحركات الاناركية الهدامة او البلشفية الشيوعية او حتى حركات التحرر القومية ومنهم ايضا من يصور البنلادنية وكأنها فاشية اسلامية جديدة او حتى نوع من الغضب المشابه لذلك المرتبط حاليا مثلا بحركات مناهضة العولمة او البيئيين الخضر المتطرفين.

نشكك بمصداقية الطيف الأول والثاني من التفسيرات الرائجة عن البنلادنية. هذه الظاهرة يجب ان تفهم من واقع العالم الاسلامي الحالي. البنلادنية ظاهرة حديثة وليست استمرارا لتاريخ التطرف المزعوم كذلك هو وفكره ليسا طيفاً من مقاومة الرأسمالية العالمية.

يجب ان نضع بن لادن في الواقع الاسلامي الذي تميز في العقود الاخيرة من القرن العشرين ليس فقط بتفكك الخطاب الاسلامي بل حتى بزوال هيبة أهل الفقه ذاتهم. والمقصود هنا المختصين بالعلم الشرعي والذي ازدادت أعدادهم وبينهم قضاة ودعاة وفقهاء ومعلمون من ذوي الاختصاص الشرعي. الكل يعلم ان الحضارة الاسلامية هي حضارة تميزت بالانتاج الفكري الفقهي وليس بالصناعة او الموسيقى او حتى فن العمارة. الفقه او ما يسمى حاليا بسيادة القانون هو الجانب الطاغي على النتاج الثقافي الاسلامي رغم ازدهار الجوانب الثقافية الاخرى من رسم ونحت وعمارة وشعر وأدب. فدراسة الحضارة الاسلامية تبدأ قبل كل شيء بدراسة الكتاب والسنة ومن ثم تنتقل الى مجلدات الفقهاء وهي نتاج بشري واجتهاد علمي يملأ رفوف المراكز العلمية الدينية. مركزية الفقه في الثقافة ادت الى تبوؤ الفقهاء مكانة مميزة في المجتمعات الاسلامية اذ انهم هم همزة الوصل بين الرسالة والبشر ويكبر دورهم كلما ابتعدنا عن المركز الاسلامي والمقصود هنا العربي اذ ان هذا البعد يولد اعتمادا اكبر على هؤلاء الفقهاء وخاصة ان اللغات المختلفة للمسلمين قد تقف حجر عثرة في طريق الاتصال المباشر مع المصادر الدينية وخاصة العربية اللسان. ونرى بوضوح كيف ان أهل الفقه يحتلون مركزا قويا بين الجاليات المسلمة غير الناطقة بالعربية اذ ان هذه الجاليات تصلها الرسالة فقط من خلال هؤلاء الفقهاء على عكس العربي والذي ربما ان حصل على تأهيل لغوي متوسط يستطيع بعده ان يتواصل مع الرسالة دون وساطة أهل الفقه رغم انه مضطر ان يعود اليهم في الأمور المعقدة في فقه العبادات والمعاملات وغيره.

مع بروز الدولة الحديثة فقد اهل الفقه استقلاليتهم وأصبح معظمهم موظفي دولة مجردين من استقلالية ادارية واقتصادية بل تحولوا الى مجموعة معتمدة اعتمادا كليا على السلطة. هذا التحول الجذري افقد أهل الفقه هالتهم المعهودة وانقض عليهم عندها طيف كبير من المنتقدين منهم ذوو الثقافة الحديثة المستقاة في جامعات ناشئة بالاضافة الى ما سمي بالثوريين والمناضلين والذي وجدوا فيهم نموذجا يساند السلطة ويشد على يدها. وجاء بعد هؤلاء دور المثقف الاسلامي او المناضل الاسلامي والذي هو ايضا صب جام غضبه على اهل الفقه بسبب تواطئهم مع السلطة التي يطمح هذا بتقويضها وزعزعة دعائمها. تقوقع اهل الفقه في مساجدهم ومحاكمهم ومجالسهم وطلبوا الحماية خلف علمهم الفقهي. فعندما اعلن بن لادن الجهاد العالمي على اليهود والنصارى راح هؤلاء ينبشون مجلداتهم ويفصلون انواع الجهاد وصفاته وشروطه وقوانينه ليظهروا عدم شرعية النداء البنلادني ويصرفوا شباب المسلمين عن تلبية هذا النداء. ربما يكون بن لادن المسمار الأخير في نعش علماء المسلمين والله اعلم ـ خطاب بن لادن خطاب يتصدى لأهل الفقه اينما كانوا وخاصة في السعودية. ورغم انه لم يتصادم معهم في بداية مشروعه الا ان التصادم كان حتميا فيما بعد.

اختطف بن لادن الاسلام من اهل الفقه وكسر احتكارهم للعلم الشرعي تحت مظلة الدولة. وان تساءلنا اين يصنع الحدث اليوم ومن يستولي على الاضواء الاعلامية. هل هم أهل الفقه في مجامعهم ومؤتمراتهم السنوية ام في محاضراتهم الدورية في مراكز العلم الشرعي او حتى على الفضائيات العالمية؟ خلال اكثر من نصف قرن تحت مظلة الدولة الحديثة في العالم العربي لم يحتكروا الاضواء ويتصدروا الحدث ففي الغرب مثلا عرف الجميع اسم ناصر في الستينات وفيصل في السبعينات وصدام في الثمانينات ولم يسمعوا باسم اي عالم من علماء الفقه في العالم العربي والاسلامي. كان هذا مؤشرا واضحا للتغيرات التي طرأت على دور هؤلاء تحت مظلة السلطة السياسية. في التسعينات جاء اسم بن لادن ليملأ الفراغ ويزيح دور أهل الفقه ربما للمرة الاخيرة. لا يتميز بن لادن بعلم شرعي اكتسبه عن طريق شهادات علمية كذلك لا يتميز ببطولات عسكرية خيالية رغم بعض القصص عن بطولاته في الساحة الجهادية الافغانية. لماذا اصبح بن لادن حديث الغرب والشرق إذن؟

استطاع بن لادن ان ينتشل الاسلام من المحلي وينقله الى ما هو عالمي في عصر له خصوصياته ابرزها الاتصال المعلوماتي والاعلامي والفكري والاقتصادي. استطاع ايضا ان ينتشل الاسلام من ايدي الفقهاء واحتكارهم الى المسلم العادي البسيط. خطاب بن لادن له رواج في العالم الاسلامي وحتى بشهادة المختصين الغربيين ذاتهم لأنه نقل الاسلام من المجمع الفقهي الى حيزين.

الحيز الاول هو العالم بأسره والحيز الثاني هو الانسان الخاص. ان يتفاعل الصومالي في الصومال والباكستاني في ليدز والمصري في المانيا وما يسمى بالسعودي في مكة مع هذا الخطاب يدل على خصخصة واضحة. اصبح الاسلام مع بن لادن مشروعا شخصيا منفردا خارجا عن قيد الفقيه او السلطة السياسية. يحمله هذا الانسان ويرحل به في زمن الترحال الحالي ربما توصله أسفاره الى ميناء عدن او مومباسا او صخب بانكوك او نيويورك. كذلك يرتحل به الى صحراء النفوذ ويستقر به في جبال مكة ثم يأخذه معه الى صقيع الشيشان وادغال الفلبيين وبالي.

وهذه الخصخصة والشخصنة كسرت طوق الهويات المحلية من مذهبية وقبلية ومناطقية. فرغم ان مريدين بن لادن يصرون على كنياتهم المحلية والقابهم التي ترمز الى جذورهم الا انهم أناس تمردوا على المحلي قبليا او مذهبيا او حتى جغرافيا. يمثلون المسلم المرتحل المسافر والمهاجر الفار من الوطن والجغرافيا وقيود الفقهاء واجتهاداتهم وبطش السلطة ورجالها. البنلادنية لا تدافع عن الجغرافيا بل هي ثورة ضدها رغم كل خطابات بن لادن عن ارض المسلمين المحتلة. بن لادن يستقي رجاله من تلك المجموعة المسافرة المهاجرة التي لا تعرف الحدود المرسومة. كذلك لا يضر هذه المجموعة فقدانها لهويتها المحلية فما اسرع ان يتحول ابو القعقاع الجهادي الى ابو الكاكا على ثغور تورا بورا وأبو الدرداء النجدي يصبح او دادا في كوبتا البلوشية وابو الخطاب العربي فجأة يتحول الى «ابو كتّاب» مع برد الشيشان القارس.

كذلك بن لادن لا يحارب الامبريالية كما حاربها غيره في السابق وفي الوقت الحالي. بن لادن ليس ضد الرأسمالية كنظام اقتصادي وكيف يكون كذا وهو صاحب الثروة والمشاريع الاقتصادية. بن لادن يطمح ويعمل الى خلافة ميتافيزيقية ليست سجينة للجغرافيا او النظم الاقتصادية المعروفة والمهيمنة حاليا. هو يصبو الى اسلام معولم بلا حدود ينقله الفرد من المعسكر الى معسكرات اخرى في كل مدينة ومرفأ تتحول هذه المعسكرات الجديدة الى ساحات حرب دائمة تبدأ المعركة فيها اولا مع النفس البشرية ومن ثم تنتقل الى من يعرفه هذا الشخص ذاته بالعدو.

اختطف بن لادن الاسلام من بين يدي أهل الفقه المنغمسين بخلافاتهم الفقهية ومعاركهم المذهبية ورسائلهم العلمية ورودهم بعضهم على بعض في مدارسهم وحلقات ذكرهم وحتى قاعات مؤتمراتهم بعضها في فنادق ذات خمسة نجوم وبعضها في مبان شاهقة حديثة ورحل به الى الهامش. صناعة الحدث الاسلامي اليوم لا تحصل في المركز العربي الاسلامي المتمثل قلبه في الجزيرة العربية ولكنها تحصل على الهامش الجغرافي والحضاري لهذا المركز وبالتحديد في مناطق نائية سياسيا واقتصاديا كالشيشان وافغانستان وادغال الفليبين وسواحل افريقيا الشرقية. اصبح اليوم هذا الهامش الجغرافي الاسلامي بفضل بن لادن ساحة ينطلق منها اسلام بن لادن المشخصن والمعولم في نفس الوقت ليحتل الصدارة على شاشات التلفزيون العالمية ومراكز الابحاث الغربية وصناعة القرار. يحتكر بن لادن موقع صناعة الحدث فلا فوز اخوان مصر في الانتخابات ولا فوز حماس في المجلس التشريعي الفلسطيني ولا فوز ما سمي بالاسلاميين في انتخابات البلدية السعودية ولا حوارات الراعي والرعية في هذا البلد استطاعت ان تحتكر الحدث ولو لثوان معدودة كما احتكره بن لادن خلال السنوات الأخيرة من موقعه على الهامش الاسلامي. العنف المرتبط بظاهرة بن لادن ربما هو احد الاسباب ولكن اذا تمعنا في هذه الظاهرة سنجد انها تحتكر تفكير من عاداها ومن صادقها ومن طمح الى الانخراط في مشروعها. يأخذ بوش تهديداتها على محمل الجد كما تأخذ الحكومات العربية والاكثرية الصامتة المغلوبة على أمرها هذا بالاضافة الى اهتمام اهل الفقه ذاتهم المنشغلين بتفنيد مزاعم بن لادن وخطاباته وتبرئة الاسلام من مزاعمه وطموحاته.

القدرة على تحمل العنف المسلح تختلف من مجتمع الى مجتمع ولكن بالنهاية ربما تنبذه المجتمعات الاسلامية وترميه خارج اسوارها ولكن تصوروا سيناريو تطبق فيه القوات الامريكية على بن لادن في مخبئه ومعه حفنة من مريديه وحلقة ضيقة من مساعديه فيقرر هؤلاء ان لا يقعوا احياء بيد اعدائهم وينتحرون انتحارا جماعيا في كهف المأسدة الجهادي كما انتحر جماعيا طائفة من اليهود الذين لجأوا الى «المأسدة» اليهودية عام 72 هربا من القيصر الروماني. ماذا سيفعل مريدو بن لادن، هؤلاء الذين شخصنوا الجهاد وخصخصوه في ترحالهم اينما كانو